الصدق الفني و الصدق الواقعي في التعبير القرآني

عند سيد قطب

د.العرابي لخضر - جامعة تلمسان

إذا كان التعبير عن النفس غريزة في الإنسان، فإن الحكم على هذا التعبير في جودته، أو رداءته، اختلف باختلاف البيئات و العصور. لذلك نجد منذ فجر الإنسانية أحكاما على الفن، و إن كانت تبدو في كثير من الأحيان خالية من التعليل، أو ساذجة؛ إلا أنها تظل أحكاما نقدية على الرغم مما فيها من سذاجة.

و من القضايا النقدية التي استأثرت باهتمام النقاد و الدارسين، قضية علاقة الفن بالدين و الأخلاق؛ وهي القضية التي ظلت سلاحا قويا يُشْهَر في وجه الأدباء و الشعراء، من قبل بعض النقاد الذين لا يفصلون بين معتقد الفنان و فنه؛ و عليه فقد رأى هؤلاء أن الآراء و الأفكار المخالفة للدين، تقدح في جودة الفن و الأدب. و نحسب أن هذا الصنيع أجّج معركة نقدية بين النقاد الذين التزموا الفصل بين الفن من جهة، و بين الأخلاق و الدين من جهة أخرى، و غيرهم الذين لا يفصلون بين الدين و الفن. فكان كل فريق ينتصر لرأيه، و يتعصب لمذهبه في النقد[1].

على أن قضية الصدق الفني و الصدق الواقعي، اتخذت منحى آخر عند النقاد التراثيين؛ فقدامة بن جعفر قد جعل العقل، و الشجاعة و العدل، و العفة أساسا لمعاني الشعر؛ فوجب على هذا القياس أن يكون مصيبا، من مدح بإثبات هذه الخلال، أو هجا بسلب هذه الفضائل الأربع الكبرى[2].

أما ابن طباطبا، فإنه يؤسس الشعر على الصدق، ويرى أن الفهم يأنس من الكلام بالعدل و الصواب الحق. و يستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل»[3]، و لكن

ابـــن رشـــيق القيرواني، يبتعد عن هذا المفهوم، فيرى أن من فضائل الشعر الكذب – لذي اجتمع الناس على قبحه – حسن فيه[4].

و يعلّـــل النقاد التراثيون مقولة أحسن الشعر أكذبه »، على أن الصدق الفني يكون محتملا للكذب، بما فيه من مبالغة، وإغراق و إفراط و غلو.

أمـــا الـــنقاد في العصـــر الحديث، فلهم رأي مخالف للقدامى في هذه القضية؛ فالصـــدق الفني و الصدق الواقعي عندهم يظهران في الملائمة بين الإحسّاس و الشعور و العواطـــف، و بين التعبير عنها. و من هؤلاء، العقاد الذي يرى أن الشعر ينبغي أن يشتمل على عنصرين أساسين، و هما عنصر الشعور الصادق، و عنصر التعبير الجميل[5].

و يقترب محمد مصايف من هذا المفهوم في الخلاصة التي انتهى إليها من مناقشته لهذه المسألة عند جماعة الديوان، حيث يرى أن الجمال في التعبير هو هذه الملائمة التي تقوم بين الشكل و المضمون، أو هذه العلاقة الفنية التي، إذا توفرت، جعلت من الشعر الصادق، و من التعبير عنه، شيئا واحدا نسميه الشعر»[6].

و لعلـــنا نـــدرك مـــن هـــذا الرأي و غيره، مما سبقت الإشارة إليه، أن النقاد والدارســـين، قديمـــا و حديثا، لا يهمهم مما يرسمه الأدباء بتعابيرهم و ألفاظهم من الصـــور، إلا الصدق الفني بمعنى أن تكون صورهم متناسقة جميلة مؤثرة، فيها إبداع وفـــن و جمـــال و ســـحر، بهدف التأثير في مشاعر القراء، و نيل إعجابهم، و مخاطبة حاستهم الفنية. و لا يهمهم أن تكون هذه الصور حقيقة أو ملفّقة، صحيحة أومخترعة، واقعـــية أو خيالية، صادقة في دلالتها الواقعة، أو غير صادقة في هذه الدلالة، أو بمعنى لا يهمهم الصدق الواقعي لصورهم أبدا»[7].

و لم يـــتوقف الأمـــر عند هذا الحد من إغفال الصدق الواقعي؛ بل راح الأدباء يتســـابقون عـــلى الابتعاد عن الواقع، ظنا منهم أنهم كلما بالغوا في اصطناع الأخيلة واخـــتلاق الصور، و تلفيق المشاهد، كلما كانوا أقرب من غيرهم إلى الصدق الفني؛ وبهـــذا الصـــنيع انفصل الصدق الفني عن الصدق الواقعي في أعمال كثير من الأدباء

نين.فإذا صحّ أن هذا على ما قلناه، فلنذكر الآن مفهوم سيد قطب، للصدق الفني و الصدق الواقعي، كما بيّنه في دراسته الفنية للقرآن الكريم.

لقد حدّد سيد قطب الصدق الفني في القرآن الكريم تحديدا واضحا، فلخّصه في جمال العرض، و تنسيق الأداء، و براعة الاختراع»[8]، و لم يجل في ذهنه قط، أن لفظ الفـــني» بالقـــياس إلى القـــرآن، ينصرف حتما إلى الابتداع الذي لا يسنده واقع، أو الاختراع القائم على مجرد الخيال، البعيد عن حدود المعقول.

بـــل يـــرى أن الفن في القرآن إبداع في العرض، وجمال في التنسيق، و قوة في الأداء. و شـــيء من هذا كله لا يقتضي أنه يعتمد على الخيال و التلفيق و الاختراع. متى استقامت النفوس و صحت الأفهام !»[9]

و هكذا يرى سيد قطب أن الحقائق الواقعة، يمكن أن تعرض عرضا فنيا كاملا، و عرضـــا علمـــيا، من غير أن تفقد صفتها الأساسية من الصدق و الواقعية. و هذا لا يعـــني بأي حال من الأحوال أن إلياذة هوميروس التي صاغها من الأساطير، أو أعمال الأدبـــاء الأوروبـــيين و غيرهم الذين لم يكونوا يتوخون الوقائع الحقيقية فيما يكتبون، ليست فنا! بله فن، و لكنه ليس الفن كله[10].

و من هذا العرض يتبين لنا بأن الصدق الفني في القرآن عند سيد قطب يتمثل في العـــرض الجميل للحقائق الواقعة، و أنه لا يعني أن القرآن فقد دلالته الواقعية، أو تخلى عن صدقه الواقعي.

و علـــيه، فقد أظهر سيد قطب واقعية القصص القرآني الدقيقة في التصوير الفني وبـــيّن الصدق الواقعي لها، في كل موطن من كتابه في ظلال القرآن» تحدث فيه عن التصوير الفني في القرآن.

و مـــن الأمثلة على الصدق الواقعي في التصوير الفني، ما بيّنه من تلك الصورة المرســـومة لبني إسرائيل، التي صوّرت مشهد النجاة بعد مشاهد العذاب: ﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾[11]، حيث يرى أن القرآن

يذكّر بني إسرائيل بهذه القصة التي يعرفونها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها، ويتأثروا بهذا التصور، و كأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر، و نجاة بني إسرائيل بقيادة موسى – عليه السلام – على مشهد منهم و مرأى! وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب »[12].

و يومئ إلى الصدق الواقعي في الصورة الفنية التي يرسمها قوله تعالى، لسلوك ونفسية بني إسرائيل الذين قالوا: سمعنا و عصينا»، فيرى أن حكاية هذا القول عنهم فيه تصوير حي للواقع الصامت، كأنه واقع ناطق. لقد قالوا بأفواههم: سمعنا. و قالوا بأعمالهم: عصينا. و الواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالته. و هذه الدلالة أقوى من القول المنطوق.. و هذا التصوير الحي للواقع يومئ إلى مبدإ من مبادئ الإسلام: إنه لا قيمة لقول بلا عمل. إن العمل هو المعتبر. أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة و الحركة الواقعة، و هي مناط الحكم و التقدير[13].

و تحدث سيد قطب حديثا مسهبا، عن الصدق الواقعي في النماذج الإنسانية التي تمتّ بصلة إلى النماذج القصصية، و التي رسمها القرآن الكريم في خلال تعبيره عن أغراضه الدينية المختلفة؛ وصوّرها تصويرا دقيقا، فما هي إلا جملة أو جملتان حتى يرتسم النموذج الإنساني شاخصا من خلال اللمسات، و ينتفض مخلوقا حيا خالد السمات»[14].

و إن هذه النماذج عنده، التي رسمها القرآن صورة للجنس البشري كله، أو لأشخاص منه مكرورين، تتحوّل إلى نماذج إنسانية خالدة لا يخطئها الإنسان في كل مجتمع و في كل جيل»[15]؛ و على الرغم من أن هذه النماذج تمثل شخصية واقعة، رسمها القرآن لمناسبات خاصة، إلا أن المعجزة الفنية في التصوير، كما يقول سيد قطب، جعلت هذه النماذج أبدية خالدة؛ تتخطى الزمان و المكان، و تتجاوز القرون و الأجيال»[16].

و مـــن الـــنماذج الإنسانية التي صوّرها التعبير القرآني تصويرا حيا شاخصا، لا يعـــدم المرء أن يلفيها في كل زمان و مكان؛ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَـــاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا، بِهَا وَإِنْ يَـــرَوْا سَـــبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾[17].

يـــرى ســـيد قطـــب في هذه الآية التي جاءت في نهاية قصة موسى لبيان عاقبة المتكـــبرين، أنها تصوّر طبيعة هذا الصنف من البشر، تصويرا دقيقا، في نصاعة و جمال التعـــبير القـــرآني، إذ يرتسم من خلال هذه الكلمات القرآنية هذا النموذج من الناس، كأنمـــا المتلقي يراه اللحظة بسماته و حركاته! و إن الإنسان ليصادف هذا الصنف من الخلـــق بوصفه هذا وسمته و ملامحه، فيرى كأنما يتجنب الرشد و يتبع الغي دون جهد مـــنه، و دون تفكـــير و لا تدبير... و سبحان الله! فمن خلال اللمسات السريعة في العبارة القرآنية العجيبة ينتفض هذا النموذج من الخلق شاخصا بارزا حتى ليكاد القارئ يصيح لتوه: نعم. نعم. أعرف هذا الصنف من الخلق.. إنه فلان!! إنه للمعنيّ الموصوف بهذه الكلمات!! »[18].

و من الأمثلة على الصدق الواقعي للنماذج التي تصور الجنس الإنساني كله، قوله تعـــالى: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ، دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا، أَوْ قَائِمًا، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ...** ﴾[19].

في هذه الصورة، لهذا النموذج الإنساني تجتمع، كما يقول سيد قطب عناصر الصدق النفسي، و الصدق الفني. فالإنسان هكذا حقا: حين يمسه الضّر، وتتعطل فيه دفعة الحياة، يلتفت إلى الخلف، و يتذكر القوى الكبرى، و يلجأ عندئذ إليها؛ فإذا انكشف الضر عنه، وزالت عوائق الحياة، انطلقت الحيوية الدافعة في كيانه، و هاجت دواعي الحياة فيه، فلبى دعاءها المستجاب، و مر كأن لم يكن بالأمس شيء!

إن الحياة قوة دافعة إلى الأمام، لا تلتفت أبدا إلى الوراء، إلا حين يعوقها حاجز عن الجريان»[20].

هذا فيما يخص الصدق الواقعي في هذه الصورة، أما الصدق الفني فيها، فإنه يراه يتمثل في تلك الإطالة في صور الدعوة عند الضر: (دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) ثم في ذلك الإسراع عند كشف الضر: (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه). إن هاتين الصورتين تمثلان بالضبط وقوف التيار عن الجريان أمام الحاجز القوي، فقد يطول هذا الوقوف و يطول؛ فإذا فتح الحاجز تدفق التيار في سرعة، و مر كأن لم يقف قبل أصلا»[21].

و من ذلك أيضا، تبيانه للصدق الواقعي للصورة الفنية المرسومة للمشاعر الإنسانية، في قوله تعالى من سورة يوسف: ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[22]، حين قال معلّقا على هذه المشاعر الطبية: و هكذا يتجلى العنصر الإنساني في القصة، التي لم تسق لمجرد الفن، إنما سيقت للعبرة و الموعظة. و سيقت لتعالج قصة العقيدة و الدعوة، و يرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر و انتفاضات الوجدان رسما رشيقا رقيقا شفيقا. في واقعة كاملة تتناسق فيها جميع المؤثرات و جميع الواقعيات في مثل هذه النفوس، في ظل بيئتها و مؤثرات هذه البيئة كذلك»[23].

و نستخلص من هذه الأمثلة التي استعرضناها هنا استعراضا سريعا - و ما لم نستعرضه كثير- أن سيد قطب يرى الصدق الفني في التعبير القرآني، تجتمع فيه كل عناصر الصدق الواقعي، و النفسي، و العقلي؛ و جميع ألوان التناسق الفني و آفاقه. و أن القرآن ليرتقي بهذا الصدق بنوعيه حتى يفوق كل أساليب التعبير البشرية. و هذه ذروة الإعجاز القرآني في أوسع معانيه.

الهوامش

1. ينظر: محي الدين صبحي: نظرية النقد العربي و تطورها إلى عصرنا ليبيا تونس – الدار العربية للكتاب. 1984 –ص 13-15.
2. ينظر: قدامة بن جعفر: نقد الشعر بيروت – دار الكتب العلمية – (د ت) – ص 96 وما بعدها ص 10.
3. عيار الشعر تحقيق طه الجابري و محمد زغلول سلام مصر شركة فن الطباعة 1956 ص 10.
4. العمدة – الدار البيضاء – دار الرشاد الحديثة – (د ت) – ج^{1} – ص 22.
5. ينظر: محمد مصايف جماعة الديوان – الجزائر – نشر البعث قسنطينة – (د ت) – ص 246.
6. المرجع نفسه – ص 246.
7. صلاح عبد الفتاح الخالدي – نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الشهاب للطباعة و النشر باتنة الجزائر (د–ت)– ص 256.
8. التصوير الفني في القرآن دار الشروق بيروت،ط7، 1983، ص 255.
9. المصدر نفسه – ص 259.
10. ينظر: المصدر نفسه – ص 256.
11. سورة البقرة، الآية 50.
12. في ظلال القرآن –دار الشروق بيروت ط 1، 1982، م^{1} – ص 71.
13. ينظر: المصدر نفسه – ص 91.
14. التصوير الفني في القرآن ص 216
15. المصدر نفسه– ص 216.
16. المصدر نفسه – ص 216
17. سورة الأعراف، الآية 146.
18. في ظلال القرآن – م^{3} – ص 1372.
19. سورة يونس، الآية 12.
20. التصوير الفني في القرآن – ص 217.
21. المصدر نفسه – ص 217.
22. الآية 53.
23. **في ظلال القرآن – م^{4} – ص 1996.**